

إضاءة

الجواهري شاعر الكلاسيكية الفخمة

ولد الشاعر محمد مهدي الجواهري سنة / ١٩٠٠م / كما نرجح، في النجف في أسرة عريقة ذات سمعة طيبة، في العالمين العربي والإسلامي، تضع العلم والتراث ومكارم الأخلاق في المكان الأول.

فكان لهذه المؤثرات دورها البارز في تكوين سمات شخصيته ونضوج شاعريته. وقد عُرفت أسرته باسم "الجواهري"، وهذه التسمية تعود بجذورها إلى قريب هو الشيخ محمد حسن أحد الفقهاء في عصره، أُلّفَ كتاباً عظيم الأهمية أطلق عليه اسم "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام" للمحقق الحلي، كان أحد ثلاثة كتب لا يمكن أن يصل طالب العلم إلى مرتبة الاجتهاد ما لم يدرسها.

درس شاعرنا على أيدي كوكبة من الشيوخ وأخذ عنهم، كما كان سائداً في عصره، علوم النحو والصرف والبلاغة، والمنطق، والفقه. وقد نشأ نشأة دينية صارمة، واعتمر العمامة في بدايات حياته، وهو يذكر لنا أن الشيخ الذي درس عليه ويسميه "جناب عالي" كان يجمع بين الوقار والجمال الممزوجين بالقسوة والغلظة. وكان يملك صندوقاً مليئاً بالعقارب يحمله معه، ولا يتورع عن فتحه وتهديد الأطفال به كلما دعت الحاجة. ولذلك بات الشاعر مسكوناً بالهواجس السوداء. اعتاد أن يفيق في الليل مذعوراً من العقارب. العقرب يلزمه، يتبدى له في يقظته كما في حلمه. يقول الجواهري:

"اليوم. اليوم. وقبلها البارحة. نمت ساعة العصر ورأيتها بشكلها المقيت الكريه تملأ الغرفة... وأفقت مرعوباً... أريد أن أذكر يوماً واحداً من هذا العمر الزاحف الطويل والثقيل - في بعض الأحيان - لم تزرني فيه هذه الأطياف" إن ذلك ليبدو مستحيلاً. من أين جاءت هذه العقارب؟ ثمة وكر في أعماق الذاكرة واللاشعور تخرج منه لتتنقض عليك".

يروى الشاعر عن طفولته، على حد تعبير الدكتور ميشال جحا، كيف أنه لم يخف الأفعى، وكيف أنه كان يبقى في الليل ساهراً وفي حالة يقظة، بعد أن ينام الجميع، وليل النجف يماثل ليل الصحراء، حيث الصمت الأبدي والسكون المطلق. ينام على سطح منزله... ظهره إلى الأرض... وعيناه شاخصتان ببراءة إلى النجوم المضيئة، كأنه ليس من سكان هذا الكوكب الأرضي وهو فيه، لينتقل على أجنحة الحلم الأثيري إلى أجواء بهيجة نابضة بالسحر الصادر عن طهر الطفولة.

وبفضل نباهته... وقوة ذاكرته العجيبة كان الجواهري، وهو في مرحلة الطفولة تقريباً، يحفظ في نهاية كل يوم فقرات خطبة من كتاب "نهج البلاغة" للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقطعة من كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي، وقصيدة من ديوان "المتنبي" الجد الأكبر للشعراء العرب، دون أن يهمل تلاوة وحفظ آيات من القرآن الكريم. وقد كسب جائزة من والده مرة ومنحه ليرة ذهبية حقيقية، لأنه حفظ ٤٥٠ / بيتاً من الشعر في مدة لا تتجاوز ثماني ساعات.

وكان لنشأته في النجف أن اكتسب من البيئة النجفية النزعة الاستشهادية، وروح المغامرة، وركوب المخاطر دون وجل أو تردد، فكان يجنح إلى التحدي والتمرد والثورة. وهو ما كان يروق له سوى الشعر، وأن يستمع إلى شاعر ينشد شعره في ندوة أدبية أو في مجلس. فالشعر كان يحتله ويجعله يتعبد في محرابه بخشوع وصفاء، ولا يخفى على القارئ الكريم أن النجف كانت متميزة بكثرة الشعراء الكبار فيها.

وتجدر الإشارة... إلى أن الجواهري كان نهماً في مطالعته الحرة، يقرأ دواوين الشعر القديم والحديث، وكتب الأدب واللغة والفلسفة، وكذلك الأدب العالمي

المترجم إلى لغة الضاد ، وقد حفظ دون عناء وبأيسر جهد ديوان المتتبي.

وفي بدايات شبابه كان شاعرنا يوزع المنشورات السرية والبيانات الثورية في النجف ضد الانجليز الذين سيطروا على مقدرات وطنه. ومن طريف أخباره أنه حين زار سورية ولبنان سنة ١٩٤٤م/، حظي بترحيب من رجالات الأدب والفكر، ومن نجوم المجتمع، وكان أن عاد إلى وطنه ترافقه فتاة جميلة تدعى "رمزية" زوجة له. ولكن هذا الزواج لم يدم أكثر من ثلاثة شهور، عادت بعدها الزوجة إلى أسرتها في لبنان.

ومن المفارقات أن الجواهري عندما ألقى قصيدة سنة ١٩٤٥م/، انتصاراً لقضية فلسطين مطلعها:

خذي مسعائِ مِثْخنةَ الجراح

ونامي فوق دامية الصفاح

ومُدِّي بالممات إلى حياةٍ

تسرُّوبالغناء إلى ارتياح

علّق أحد الأدباء الظرفاء الخبثاء في حينه على ذلك زاعماً إن الجواهري لا يقصد بذلك نكبة فلسطين بوعده "بلفور" وما نجم عنه، وإنما يقصد نكبته وكارثته بفرار زوجته منه وعدم عودتها إليه.

عمل في التعليم ثم في التشريفات الملكية في بلاط الملك فيصل الأول، ثم استقال من الوظيفتين لينصرف إلى مزاولة الصحافة في بلاط صاحبة الجلالة.

أما سبب تركه وظيفته المرموقة في التشريفات فهو أنه نظم سنة ١٩٢٩/ قصيدة عنوانها "جربيني!" نشرها في جريدة "العراق" العدد ٢٩٠١/ في ٢٣/ تشرين الأول ١٩٢٩/ جاء في مطلعها:

جربيني من قبل أن تزدريني

وإذا ما ذممتني فهاجريني

ويقيناً ستندمين على أنك

من قبل كنت لم تعرفيني

أنا ضد الجمهور في العيش

والتفكير طراً وضده في الدين

وحين سمع الملك بهذه القصيدة استدعاه على عجل وقال له:

- أيجوز أن يصدر هذا الكلام عن ابن الشيخ صاحب الجواهر؟!

أجابه على استيحاء:

- إنه كلام شعراء... والشعراء يتبعهم الغاؤون...

قال الملك الغاضب:

- وماذا عن الخروج عن الدين ومساسه.

قال الجواهري:

- أعتذر ولن أعود إلى ذلك مرة ثانية إن شاء الله.

وما إن تخطى الجواهري القصر بعدة أمتار، حتى همس في نفسه: سأعود...

وأعود... وأعود... ثم نظم قصيدة يقول فيها:

قال لي صاحبي الظريف وفي الكفّ

ارتعاش وفي اللسان انحباسه

أين غادرت عمّة واحتفاظا!

قلت: إنني طرحتها في الكناسه

ثم كان أن هجر العمل الرسمي، بعد أن مكث فيه حوالي ثلاث سنوات،

واتجه سنة / ١٩٣٠ / نحو عالم الصحافة بخطوات جريئة.

يميل شاعرنا إلى النظم المطول، ولكنه لا يُسِفّ، وفي شعره نجد شواهد كثيرة لا حصر لها، على الشاعرية المتوقدة، وعلى المثالية الرفيعة، وعلى الديباجة الجزلة الفريدة في صياغتها الكلاسيكية الفخمة، حينما هي من الوقت ذاته تعلن أنها خادمة وحيه، وليست بالمسيطرة التي يحتمي وراءها النظامون السطحيون.

والحق يقال... فما من قصيدة لهذا الشاعر الكبير إلا وهي مشرقة بأطياف وألوان فنية عديدة، وما من قصيدة له إلا وهي برهان دامغ على أن الشاعر المطبوع التقدير المتضلع من لغته، لا يخضع للقافية ولا للفظ، بل إنها طوّعُ قلمه طواعية "الطين" لأنامل النحات، وما من قصيدة له إلا وهي صاحبة رسالة لجميع الأحرار، لأن شعره يساهم في الدفاع عن حقوق الإنسان وكرامته قبل أن يشغل نفسه بقضايا هامشية لا طائل منها، على حد تعبير الدكتور الشاعر أحمد زكي أبو شادي.

ومما يسترعي الانتباه في معظم شعر الجواهري، أنه شاعر مناسبات. ولكنه صنو المتبني، يتخذ المناسبة وسيلة للتعبير عما يعرض له في الحياة من شتى الخواطر ومختلف الانفعالات. تأثر شعره بالقديم، فبارى أقطابه حتى بزّهم، وطعمه بالجديد وأفكار العصر الثورية. تغزل بالمرأة، ووصف بهاء وروعة الطبيعة، ولكن أعظم شعره ما اتصل بالحياة، وعرض لمأساة المجتمع والبلاد، فندد بالحكام، وحمل على المستعمر، وحارب المتزمتين، وطعن الإقطاع، ولم يسكت عن الحاكمين بل نقدهم مراراً، وكان نقده لهم ساخراً يطفح بالاحتقار والاستخفاف، ويدعو إلى الثأر منهم في صراحة وجرأة نادرتين.

ومن مزايا أسلوبه: الصدق في التعبير، والقوة في البيان، والحرارة في الإحساس الملتحم بالصور، كالتيار في نفّس ثوري ملحمي، وموسيقى صاخبة قد تغفر له أحياناً بعض التعسّف أو الخشونة في الألفاظ، أو التعقّد في التركيب، على حد تعبير الأديب أحمد أبو سعد.

وباختصار... فإن شاعر العرب محمد مهدي الجواهري، أسهم بقلمه وشعره في حركات التحرر والنضال في العراق وسائر الدول العربية. ولقي من جراء ذلك الأذى، واضطهد، وأصيب بأخيه الشهيد جعفر، ولما لم ينفع معه الاضطهاد

والتعسف، لجأ الحاكمون لمساومته وقدموا له النيابة، وكاد يعتريه الضعف أمام هذه الإغراءات والمكاسب المالية الهائلة. ولكنه عاد للتحدي والصمود، ومقارعة السلطات الحاكمة، فكانت النتيجة خروجه من العراق، لينتقل بين العديد من العواصم العربية والأجنبية، وكانت محطته الأخيرة في سورية التي دفن في ثراها، وبمكان أدق في مقبرة "السيدة زينب" بدمشق، كما أن شقيقته "نبهة" دفنت في مقبرة السيدة زينب. وفيها يقول الشاعر ارتجالاً وهو يخاطب جثمان شقيقته، وكأنه يفقد أمّاً، أو يتذكر شقيقه الشهيد جعفر، هي أخته.. وحبيبته.. هي رفيقة دربه.. ومنبر صوته.. هذه الأخت الحبيبة التي ودعها الجواهري وهو يذرف دموعه الغالية، وكان ذلك ظهر يوم ١٩/٧/١٩٨٧م/:

حبيبتي نبهة

نبيهةٌ إن الحياةَ ملعبه	ونحن فيها "طابة" ومضربة
رهن الليالي كيف ما دارت بنا	كعقرب "الساعة" رهن الذنبه
حبيبتي "نبهة" كيف ذوت	معجلة بسمتك المحببة؟
كيف انطوت تلك الليالي طائفاً	ما كان أشهى زوره وأكذبه؟
حبيبتي ونحن والخلق معاً	أسرى طيوف حلوة ومرعبة
نجتاز ألف غصة وغصة	تعتاقنا ناسين هذي العقبة
ما أخبث العمر بما يخدعنا	حتى نخال أنه ما أطيبه
يمرضنا غدراً.. وريثاً ننتهي	نسقى الدواء علقماً لنشره

كم ميتة لفت وحيد أمه لا أمه فدت به ولا أبه
أتعب بالذكرى الشقين بها وهو بما لاقاه أنهى تعب
حبيبتي "نبهة" سنلتقي عما قليل عند هذي "المتربة"

عاش الجواهري في غربتين: غربية داخلية، داخل وطنه، وغربية خارجية لدى تركه العراق وتنقله في بلاد عدة، حتى وفاته في دمشق ١٩٩٧/٧/٢٧م، بعيداً عن أرض بلاده.. أرض الآباء والأجداد.

ومع انه عاش حوالي ثلث القرن في الغربية، قسم منها في براغ، فإنه لم يتأثر بالتيارات الشعرية الغربية. ذلك لأنه كان قد تخطى الستين من عمره، ولأن مخزونه من الشعر والأدب العربي، وتعلقه بتراثه وعدم إتقانه لغة أجنبية تمكّنه من قراءة الشعر الأجنبي، كل ذلك حال دون تأثره، على حد اعتقاد الدكتور ميشال خليل جحا. وقد مكنته ذاكرته الفذة المدهشة، من حفظ الشيء الكثير من ديوان المتنبّي، وأبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، والشريف الرضي، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي.

obeikandi.com

كيف ينظم الجواهري قصائده؟

يروى الأديب سليم طه التكريتي، صديق الجواهري والذي عايشه أكثر من ربع قرن، وعمل معه في صحيفته (الرأي العام) التي كان الجواهري يصدرها في العراق، هذه اللقطة الطريفة المستمدة من صميم حياة الجواهري، ونحن إذ ننشرها كما وردت فإننا نهدف إلى مساعدة القارئ العربي الكريم، لدخول عالم هذا الشاعر العملاق:

((ينفرد الجواهري بطريقة فريدة وغريبة لا تضارعها طريقة أخرى، في نظم قصائده. فلم يكن من عادته حين كان يدعى إلى إلقاء قصيدة له في حفل معين أو مهرجان، أن يكتب قصيدته كاملة على القرطاس، كما يفعل بقية الشعراء، وإنما يكتفي بورقة صغيرة يحملها في يده حين يشرع بإلقاء القصيدة، يدون عليها بعض الحروف أو الرموز، وما تلك الرموز في الواقع سوى بعض الكلمات الأولى من بعض أبيات القصيدة، أو قوافيها. كما أنه لم يكن من عادة الجواهري أن يقرأ لأي من أصدقائه إلا نادراً جداً، حتى وإن كانوا من الشعراء المعتبرين في نظره، ما كان ينظمه قبل أن تكتمل القصيدة أو تكاد. وقد يحدث أحياناً أن ينظم أبياتاً من قصيدة ثم يهملها فلا يعود لإكمالها إلا بعد سنوات عديدة.

حدث في أواخر سنة ١٩٤٤/ أن قررت الحكومة الأفغانية نقل رفات "جمال الدين الأفغاني" من مرقده في اسطنبول، إلى موطنه الأصلي في الأفغان، وتقرر أن يمر الرفات ببغداد في طريقه إلى العاصمة الأفغانية كابول. ولقد اغتمت الحكومة العراقية آنذاك، وكان على رأس الوزارة فيها المرحوم حمدي الباجه جي في وزارته الثانية، هذه الفرصة لتعبر عن حسن نواياها إزاء الحكومة الأفغانية المشاركة في ميثاق سعد آباد، ولتتظاهر بالتدليل على تكريمها للشخصيات الشرقية العظيمة، فأعلنت عن إقامة حفل تكريمي للأفغاني بهذه المناسبة في ساحة مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وذلك في صبيحة يوم الخميس الرابع عشر من شهر كانون الأول "ديسمبر"، واختير الجواهري لأن يكون شاعر الحفل المذكور.

وقبل أن يبدأ الحفل بيوم واحد سألتها عما أعدّ للمناسبة فأنبأني بأنه قد أكمل نظم قصيدته الرائعة عن الأفغاني ومطلعها:

هويت لنصرة الحق السهادا

فلولا الموت لم تطق الرقادا

كذلك طلب إليّ أن نعدّ العدة لإصدار عدد خاص من جريدة "الرأي العام" عن الأفغاني. وقد صدر ذلك العدد فعلاً بست صفحات في يوم الجمعة السادس عشر من كانون الأول "ديسمبر" سنة ١٩٤٤/.

وكعادته كان الجواهري قد كتب "رموز" قصيدته عن الأفغاني، على علبة السكاير التي كانت في جيبه. وفي الصباح المقرر لإقامة الحفل، تفقد الجواهري علبة السكاير الفارغة التي تحمل الرموز فلم يجدها، ولم يكن لديه متسع من الوقت ليعيد نظم القصيدة مجدداً، والتي دفع بأجزاء منها للمطبعة لتتشر في العدد الخاص. وراح يزيد ويرعد ولم تهدأ ثائرته إلا بعد أن عثرت أنا على علبة السكاير التي تحمل "الرموز"، موضوعة تحت المذياع، فأخذها مسرعاً وانطلقنا نهرول إلى الشارع حيث أوصلتنا إحدى سيارات الأجرة إلى الحاضرة الكيلانية لنجد أن الحفل قد بدأ، ولكن دور الجواهري فيه لم يحن بعد)).

الابن فرات الجواهري يتحدث عن أبيه

كانت مجلة "الحوادث" قد أجرت حواراً مطولاً مع الكاتب فرات الجواهري، حول شعر والده الشاعر محمد مهدي الجواهري، ومواقفه وأفكاره، ونظراً لأهمية هذا الحوار، لأنه يلقي الضوء على نفسية شاعرنا الكبير وتكوينه الأدبي، فإننا نعيد نشر أبرز ما جاء في هذا الحوار. يقول فرات الجواهري:

- أسرة نجفية دينية وتراثية وشعرية هي التي ساهمت في صنع الجواهري. كان والده شاعراً، وشقيقه شاعراً، وابن عمته شاعراً. وكانت أسرته تعامله بقسوة فيما يتعلق بدراسة التراث وحفظه وإجادته. كان يحفظ في الليلة الواحدة أربعمئة بيت، وكان يتبارى مع أقرانه في ذلك أمام أساتذتهم. وكانت الجائزة أحياناً بعض النقود يذهبون بعدها إلى السوق ويشتررون بها كيلو "بقلاوة" مثلاً.

- لم يحرق الجواهري الشاعر مراحل الشعرية، كما يفعل بعض أغرار الشعراء اليوم، بل خطاها بخطى وثيدة متزنة مرتبطة لا بتطوره الشخصي فحسب، بل بتطور مجتمعه أيضاً.

- قصائد الجواهري العظيمة، التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الجماهير، كانت حاله أثناء وضعها، كحال المرأة الحامل التي تعاني آلام المخاض وقلقه وانفعاله. يصل الجواهري عند ميلاد القصيدة إلى ذروة الانفعال والحساسية، والطريف أنه يصل أيضاً إلى قمة المرح.

- كان الجواهري ولا يزال صديقاً للشعراء المجددين الأصلاء، وعلى صفحات جريدته "الرأي العام" نشر أشعار هؤلاء. إنه لم يفهم التجديد الشعري على أنه تجديد في التفعيلة والشكل، وإلا فهل كان عاجزاً عن اختلاق تفعيلة جديدة ينظم بها، وإيجاد تخريجات جديدة من العروض الخليلي.

- لم يكن هناك في نظر الجواهري فكر معين هو وحده الفكر التقدمي. الفكر التقدمي عنده فكر متطور دائماً. ما هو تقدمي اليوم قد لا يبقى تقدماً أبداً.

- الجواهري في مجمل ما يمسه شخصياً مفرد الحساسية، وأحب أن ألقى في الضوء هامشاً حول هذه النقطة يتعلق بذاتية الفنان، وذاتية الفنان الأصيل لو لم تكن ذاتية الجواهري هي محور من كونه ومن عوالمه كلها لما كان الجواهري عبقرياً، ولكان أصبح في عداد الناضجين والعاشرين على الشعر العربي والثقافة العربية. هناك ازدواجية بين أصالة الإبداع الفني عند الفنان، بما فيه الشاعر، وبين اعتزازه بذاتيته إلى الدرجة التي قد يصل إلى الربوبية، كما حصل عند شعراء سابقين كالمعتبي مثلاً في أبياته النبوية. لم تكن تلك الأبيات أبياتاً عابرة أو سطحية أو منحولة:

ما مقامي بأرض نخلة إلا

كمقام المسيح بين اليهود

إنها أبيات تعبر عن جموح ذاتية الفنان الأصيل. وهذا الجموح لا يتوفر إلا عند الأصلاء، ومن هؤلاء الجواهري. قد يتصور البعض أن موقف الجواهري منا هو موقف تعال أو استكبار، وقد سماه بعض الكارهين والحاسدين غروراً أو تعالياً. الجواهري حريص على ألا يساء له من قريب أو بعيد:

أقول لنفسي إذا ضامها

وأترابها محضل يزدهى

تسامي فإنك خير النفوس

فإنك قيس كل على ما انطوى

تسامي فإن جناحيك لا

يقتران إلا على مرتقى

كذلك كل ذوات الطما

ح والهـم مخلوقة للذرى

هذا ذاتية والذاتية أناط بها الجواهري شروطاً: إذا قيس كل على ما انطوى، ولم يطلقها إطلاقاً. إنه يعيش في عصر، وهذا العصر مشوب بالعديد من الشوائب والمثالب والنواقص، كأي عصر لا تسوده العدالة الاجتماعية. إنها عواطفنا الحالية، فما ينيل الجواهري من نقص لا يأتي إلا مما لصق به من مجتمعه، لكن إذا قيس كل على ما انطوى، يصبح الجواهري أميز من غيره.. وهكذا فالاعتزازية ليست غروراً.. وأكبر دليل على أنها ليست كذلك أنه أشرطها ولم يطلقها.

- ليس الجواهري مجرد شاعر سياسي كبير، ولكنه شاعر كبير في شتى أبواب الشعر وقصائده في "المقصورة" و"وصف دجلة" و"أجب أيها القلب" و"أنيتا" وعشرات سواها خير دليل على أنه الشاعر الكبير من الناحية الفنية قبل كل شيء.

- لم تكن المرأة في شعر الجواهري مجرد كائن مشتهى، بل شيئاً يتجاوز ذلك كله. ولكن ليس هناك من "امرأة" واحدة. هناك الأم، والأخت، والزوجة، والحبوبة، والغانية، وفي كل منها قال الجواهري ما يناسب. ولكن للجواهري، كما لا يخفى على أحد، ليال عابرة "يتونس" بها، وهو حتى الآن يحب مثل هذه الليالي إذا توفرت، وإذا وفرتها أجواء خالصة وحميمية...

- الجواهري لا يستطيع الالتزام بإطار حزبي معين، حتى ولو كان الحزب حزبه. فقد شرع في تأليف حزب سياسي مرتين مع عبد الفتاح إبراهيم، ولكنه في المرتين لم يستطع الالتزام حتى بإطار حزبه.

- خروج الجواهري من البلاط لم يكن في حالة انفجار تناقض. كان خروجه حالة رضائية، قرار رضائي بإصرار من عنده، وبإصرار من الملك فيصل أن لا يستقيل الجواهري من البلاط وأن لا ينصرف الجواهري إلى إصدار جريدة "الفرات" عام ١٩٣٠/.. إصرار الملك فيصل كان على أن لا يخرج الجواهري من البلاط، لأن الملك بحسبه الذكي كان يدرك ناحيتين: أن الجواهري داخل البلاط الملكي محيد تجاه الفئة الحاكمة، أما إذا خرج من البلاط الملكي فإنه يصبح في حل من هذا الحياد. النقطة الثانية أن الجواهري سيخرج من البلاط الملكي ليصدر جريدة سياسية. إذن سيعاد فتح الأبواب أمام الجواهري للاتصاق بالقضايا العامة بدلاً من

أن يبقى جالساً في قصر القضايا الخاصة، الذي هو القصر الملكي، ومع ذلك عوقب الجواهري على فعلته هذه، فما أن خرج من البلاط الملكي وأصدر جريدته حتى قدر لهذه الجريدة أن لا يطول عمرها أكثر من أشهر معدودة. لقد تربصت بها الفرص كي تغلق في أول سانحة يتيحها حكم النظام. أغلقت ومات الوليد بالنسبة للجواهري، وهو وليد عزيز وأصبح عقدة أو ظاهرة نفسية عنده أن كل مطبوع له في الصحف التي أصدرها سرعان ما يخفت صوته...

- نأتي إلى ورم قلب الجواهري من النقد. يمكن أن أصنف النقد هؤلاء إلى ثلاثة أصناف:

المعجبون بمن فيهم المؤلفون.

الكارهون إلى درجة النكران الكلي لشاعرية الجواهري، وهذا القول يفضح نفسه، يفضح مدى الحقد الذي تتخلله عوامل عديدة من أبرزها الخيبة والقصور لدى هؤلاء سواء من ناقدين أو من شعراء منتقدين. هؤلاء سهلة قضيتهم ومن اليسير التعامل معهم سواء من هو معجب، يشرح ويعمق ويبين ويوضح شعر الجواهري، ويقيمه ويميزه على غيره، أو أولئك الذين يشتهرون سيف الحقد، وهو سيف مفضوح ومثلوم ومن السهل تحطيمه أيضاً.

إنما هناك صنف آخر من الناقدين اللئام. أولئك الذين يحاولون بكل وسيلة، ولحسن الحظ أن كافة وسائلهم مفضوحة، تهمل وتجاوز ذكر الجواهري وتحبك مؤامرة الصمت حوله، كأن يجري الحديث عن الشعر العراقي الحديث فيقولون: وشهد القرن العشرين في العراق شعراء بارزين كالرّصافي، والزهاوي، والشيخ علي الشرفي، ومحمد رضا الشبيبي، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وبذلك قفزوا على التاريخ الأدبي، حتى أنهم أخذوا من عنده مجموعة سنين كاملة، كأن تكون فاصلة بين هذا الجيل من الشعراء والجيل الآخر الأكثر شباباً... وما ذنب الجواهري إذا كان يترفع عن اللجوء إلى الإعلام عن ذاته وإثارة الضجيج حولها. ليتفضل أي واحد من النقد أو الصحفيين، إذا أراد أن يقابل الجواهري وبشكل غير مصطنع. سيجد أن الجواهري يتضايق وأحياناً يدلي بالحديث أو بالتعليق الذي

له مردود إعلامي على شعره. هذا أيضاً عامل من العوامل الذي ساعد متأمري الصمت على تأمرهم الصامت في تجاوز الجواهري في كثير من الأحيان^(١)

وفي نهاية هذه الإضاءة، نسجل هذه الشهادة الرصينة التي وردت على لسان الأديبة المرموقة الدكتورة نجاح العطار، التي عرفت شاعر العرب محمد مهدي الجواهري عن كثب، بخاصة وأن هذه الشهادة تلخص، بإيجاز شديد، حياة الجواهري، ونفسيته، وشعره، والبلاغة وروعته بالإيجاز كما يقولون:

((هذا هو الجواهري، عملاق الشعر الكلاسيكي العربي، بل آخر الكلاسيكيين العرب، وأوفرهم شاعرية، ومعاناة، وقدرة على تطويع العمود الشعري، كي يحمل، ويخلق، مضامين العصر، في صياغة عربية آسرة، تثبت أن الموهبة في النتيجة، هي التي تعطي الشعر أن يكون شعراً، مع المحافظة على الوزن الذي هو أساسه.

لقد كرس حياته لقول الحقيقة، والدفاع عنها، والتهاف بها، رغم أنها كانت قمينية، في كل مرة، أن تكلفه غالياً، بل أغلى ما لديه، وهو الروح، وفي قوله الحقيقة كان جميلاً، والجميل قوله "بوالو" في كتابه "فن الشعر" هو الحقيقي، الحقيقي ولا شيء آخر. وإذا كان قد كرس شعره لتمجيد الوطن الكائن، فهو، في رؤيته المستقبلية، قد مجد، ثلاثاً، الوطن الذي سيكون، ومن هنا استحقاقه، وعظمته، وعطاؤه الكبير.

أيها الشاعر، يا شراعاً من دجلة، لتكن مباركة رحلتك الشعرية، فامخر بنا العباب، وتقبل منا باقة زهر، هي التحية لمرور مركبك في شواطئنا الجميلة)).

(١) مجلة الحوادث ١٢/١١/١٩٨١ / حوار أجراه الناقد جهاد فاضل.

obeikandi.com

محمد مهدي الجواهري في سطور...

ولد عام ١٩٠٠ / للميلاد، وهناك روايات أخرى، في النجف. والنجف مركز ديني وأدبي. وللشعر فيها أسواق تتمثل في مجالسها ومحافلها.

وقد تحدّر عن أسرة عريقة في العلم والأدب والشعر. اكتسبت شهرتها من باني مجدها العلمي الشيخ محمد حسن صاحب كتاب "جواهر الكلام". وكان لهذه الأسرة، كما لباقي الأسر الكبيرة في النجف مجلس عامر بالأدب والأدباء يرتاده كبار الشخصيات الأدبية والعلمية.

درس على عدد من الشيوخ وأخذ عنهم النحو والصرف والبلاغة والفقه وما إلى ذلك مما هو معروف في منهج الدراسة آنذاك.

لم يلتزم بالتدرج العلمي الذي جرى عليه طلبة العلم في النجف.

نظم الشعر في سن مبكرة بتأثير بيئته الخصبة بفنون الأدب وألوان المعارف، واستجابة لموهبة كامنة فيه.

لم يبق من شعره الأول شيء يذكر، وأول قصيدة له كانت قد نشرت في شهر كانون الثاني عام ١٩٢١ /، وأخذ يوالي النشر بعدها في مختلف الجرائد والمجلات العراقية والعربية.

تبوأ مكاناً مرموقاً بين شيوخ القريض في بلده.

نشر أول مجموعة باسم "حلبة الأدب" عارض فيها عدداً من الشعراء المعاصرين والقدامى.

سافر إلى إيران مرتين. المرة الأولى في عام ١٩٢٤ /، والثانية في عام ١٩٢٦ /، وكان قد أخذ بطبيعتها، فنظم في ذلك عدة مقطوعات.

ترك النجف عام ١٩٢٧ / ليعين مدرساً في المدارس الثانوية، ولكنه فوجئ بتعيينه معلماً على الملاك الابتدائي في الكاظمية.

وفي العام نفسه أصدر ساطع الحصري مدير المعارف آنذاك أمراً بإنهاء خدمة الجواهري من سلك التعليم، بسبب نشره قصيدة "بريد الغربة" التي استوحاها من طبيعة إيران في أثناء سفرته الثانية إليها، وقد اتخذ بيتاً ورد فيها ذريعة للإيقاع به.

أحدث هذا الأمر ضجة، فتدخل وزير المعارف آنذاك "السيد عبد المهدي" وألغى قرار الفصل، ولكن الجواهري استقال من وظيفته بعد أقل من شهر. ولما اتسعت الضجة رأى البلاط أن يضع لها حداً، فعينه بدائرة التشريفات.

في عام ١٩٢٤/ أعد للنشر مجموعة من شعره باسم "خواطر الشعر في الحب والوطن والربيع"، ثم أضاف إليها ما استجد له من شعر وبدأ طبعها سنة ١٩٢٧/ بعنوان "ديوان محمد مهدي الجواهري" وعندما أنجز الطبع سنة ١٩٢٨/ صدر بغلاف عليه اسم "ديوان بين الشعور والعاطفة" لصاحبه محمد مهدي الجواهري.

ثم استقال من البلاط سنة ١٩٣٠/، ليصدر جريدته "الفرات" وقد صدر منها عشرون عدداً، ثم ألغت الحكومة امتيازها فألته ذلك كثيراً، وحاول أن يعيد إصدارها ولكن دون جدوى، فبقي دون عمل إلى أن عين معلماً في أواخر سنة ١٩٣١/ في مدرسة المأمونية، ثم نقل إلى ديوان الوزارة رئيساً لديوان التحرير.

في هذه الأثناء زار العراق الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود، فنظم قصيدة يمدح فيها آل سعود لمحض التشفي بالملك فيصل، وأوصلها إلى الأمير السعودي، وطلب إليه نشرها في الجريدة السعودية "أم القرى"، ونشرت القصيدة، فأثار ذلك الملك فيصل، وكان الشاعر حينئذ مدرساً في ثانوية البصرة، ثم لم يمض فيها بضعة أشهر ونقل إلى الحلة، ثم أعيد إلى ثانوية البصرة مرة أخرى، ثم نقل إلى ثانوية النجف، ثم إلى دار المعلمين الريفية في الرصمية، وهنا نشر قصيدة عنوانها "حالنا اليوم أو في سبيل الحكم" فضح فيها نظام الحكم القائم، وأبان عن مفاسده فأحيل على لجنة "الانضباط" العام فأبدل المجلس الإنذار بعقوبة الفصل، ولم يرغب في العودة إلى الوظيفة، إلا أن بعض المسؤولين في الوزارة أقنعوه بالعودة فاختر الناصرية، ولكنه استقال من الوظيفة بعد أشهر ليفرغ للصحافة.

وفي عام ١٩٣٥/ أصدر ديوانه الثاني باسم "ديوان الجواهري".

وفي أواخر عام ١٩٣٦ / أصدر جريدة "الانقلاب" إثر الانقلاب العسكري الذي قاده بكر صدقي.

وإذ أحس بانحراف الانقلاب عن أهدافه التي أعلن عنها بدأ يعارض سياسة الحكم فيما ينشر في الجريدة، فأخذت الحكومة تتحين الفرص للإيقاع به، وتم لها ذلك، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر وبيقاف الجريدة عن الصدور شهراً.

بعد سقوط حكومة الانقلاب غير اسم الجريدة إلى "الرأي العام" ولم يتح لها مواصلة الصدور، فعملت أكثر من مرة بسبب ما كان يكتب فيها من مقالات ناقدة للسياسات المتعاقبة، وكان يصدر في أثناء تعطيل "الرأي العام" جرائد أخرى بأسماء أخرى، باسمه أو باسم آخرين "كالثبات" و"الجهاد" و"الأوقات البغدادية" و"الجديد" و"الدستور" و"صدى الدستور" و"العصور".

ولما قامت حركة مايس سنة ١٩٤١ / أيدها وبعد فشلها غادر العراق مع من غادر إلى إيران.

عاد إلى العراق في العام نفسه، واستأنف جريدته "الرأي العام".

في عام ١٩٤٤ / شارك في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق وألقى قصيدته:

قف بالمعرة وامسح خدها التربا

واستوح من طوق الدنيا بما وهبا

وفي عام ١٩٤٧ / دخل المجلس النيابي نائباً عن كربلاء، واستقال من المجلس مع من استقال من نواب المعارضة احتجاجاً على السياسة الاستعمارية التعسفية التي أرادت فرض معاهدة بورتسموث على الشعب فكانت وثبة كانون عام ١٩٤٨ /، وأريد منه أن يعود إلى المجلس النيابي في جملة من عاد إليه من المستقلين فامتنع. وفي وثبة كانون استشهد شقيقه الأصغر جعفر:

أتعلم أم أنت لا تعلمُ بأن جراح الضحايا فمُ

وفي أيلول من العام نفسه سافر إلى باريس ومنها إلى "بركلاو" في بولونيا لحضور أول مؤتمر للسلام العالمي، وكان العربي الوحيد الممثل في هذا المؤتمر، بعد أن تغيب عن حضوره الدكتور طه حسين. وبعد انتهاء المؤتمر عاد إلى باريس وأقام فيها عدة أشهر، ثم رجع إلى العراق.

أصدر في عامي /١٩٤٩/ و /١٩٥٠/ الجزء الأول والثاني من ديوانه في طبعة جديدة. وقد ضم هذا الديوان فيما ضم قصائده التي نظمها في الأربعينيات والتي برز فيها شاعراً كبيراً، ومن بينها: قصيدة "ستالينغراد" و"المقصورة" و"المعري" و"أبو التمن" و"الوتري" و"سواستبول" و"أحب أيها القلب" و"أخي جعفر" و"يوم الشهيد". وفي عام /١٩٥٠/ دعاه الدكتور طه حسين للمشاركة في المؤتمر الثقافي لجامعة الدول العربية الذي عقد في الإسكندرية، وعندما وصل إلى مصر أعلن الدكتور طه حسين أن الجواهري ضيف الحكومة المصرية، وفي هذا المؤتمر ألقى قصيدته:

يا مصر تستبق الدهور وتعثر

والنيل يزخر والمسلة تزهر

وقد عرض فيها بالحكم الرجعي القائم في العراق آنذاك. ثم عاد إلى العراق لتدعوه في عام /١٩٥١/ لجنة تأبين عبد الحميد كرامي إلى بيروت للمشاركة في تأبينه، وألقى قصيدته الشهيرة:

باق — وأعمار الطغاة قصار —

من سفر مجدك عاطر موار

وعلى أثرها تلقى أمراً عاجلاً بوجوب مغادرته لبنان، حيث ظل ممنوعاً من دخولها لسنوات عديدة.

وفي العام نفسه، وبعد عودته من بيروت عطلت الجرائد التي كان يصدرها فسافر إلى مصر احتجاجاً على مضايقته.

وعاد إلى العراق بعد أن حضر مؤتمر السلام العالمي الذي عقد في فيينا ،
وأصدر "الأوقات البغدادية" و"الثبات" و"الجهاد" ، ثم أغلقت "الجهاد" إثر انتفاضة
تشرين /١٩٥٢/ ، واعتقل في سجن أبي غريب ونظم في المعتقل قصيدة "ظلام".

أصدر عام /١٩٥٣/ الجزء الثالث من الطبعة الثالثة من ديوانه. وأصدر جريدة
"الرأي العام" إلا أنها عطلت عام /١٩٥٤/ لمناهضة الحكم الرجعي فيها.

أرادت الحكومة أن تسكته فأقطعت أرضاً في منطقة "علي الغربي" من لواء
العمارة آنذاك ، ولكنه سرعان ما تمرد ، وقد دعت لجنة تأبين الشهيد العقيد عدنان
المالكي إلى دمشق للمشاركة في تأبينه ، فلما وصل إليها ألقى قصيدته المدوية :

خلفت غاشية الخنوع ورأئي

وأتيبت أقبس جمرة الشهداء

التي فضح فيها الحكم الرجعي في العراق. وأقام في دمشق بعد أن منحته
الحكومة السورية حق اللجوء السياسي ، وظل فيها قرابة سنتين ضعفاً على الجيش
العربي السوري. وفي دمشق أصدر الجزء الأول من ديوانه في طبعته الرابعة ولم
يصدر أجزاء أخرى منه ، ثم عاد إلى بغداد عام /١٩٥٧/ .

أقام بعد عودته من دمشق في "علي الغربي" حتى إذا قامت ثورة الرابع عشر من
تموز عام /١٩٥٨/ عاد إلى بغداد ، وحيّا الثورة بقصيدته :

سدد خطاي لكي أقول فأحسن

فلقد أتيت بما يجلب عن الشنا

ثم استأنف إصدار "الرأي العام" ووقفها على تأييد الثورة ومنجزاتها.
انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين ونقيباً للصحفيين.

وعندما عقد المؤتمر الرابع للأدباء العرب في الكويت في كانون الأول من عام ١٩٥٨/ حضره رئيساً لوفد اتحاد الأدباء العراقيين... وقد واجه الوفد استفزازات شرسة ولكنه بذل جهداً في تجنب الوقوع فيها.

ولم يمض على الثورة عام حتى أخذ يواجه مضايقات مختلفة بلغت حداً أدى إلى الاعتداء عليه وتوقيفه، فخشي على حياته، فانتهاز دعوته إلى حضور حفل تكريم الأخطل الصغير في بيروت عام ١٩٦١/ لمغادرة العراق، وقد غادره فعلاً، ومن هناك استقر في براغ ضيفاً على اتحاد الأدباء التشيكوسلوفاكيين.

وإذا اشتدت الضائقة بالشاعر، قبل مغادرته العراق، رأى جماعة من الأصدقاء والمحبين أن يسعوا للتخفيف عنه ففكروا في طبع ديوانه كاملاً في أربعة أجزاء، وبدأ المشروع فعلاً وصدر منه جزءان، صدر الجزء الأول عام ١٩٦٠/، والجزء الثاني عام ١٩٦١/.

أقام في براغ سبع سنوات، وصدر له فيها عام ١٩٦٥/ ديوان جديد سماه "بريد الغربة".

وفي أواخر عام ١٩٦٧/ جاء إلى بيروت لطبع ديوانه كاملاً، فاتفق مع دار الطليعة على إصداره، فصدر الجزء الأول منه في نيسان من عام ١٩٦٨/.

وبعد ثورة السابع عشر من تموز، وفي أواخر عام ١٩٦٨/ عاد إلى الوطن بدعوة من حكومة الثورة. وقد استقبل استقبالاً حافلاً، وأقامت له وزارة الإعلام حفلاً لتكريمه، ألقى فيه القصائد والكلمات، وألقى هو فيه قصيدته:

أرح ركابك من أين ومن عثر

كفائك جيلان محمولاً على سفر

خصصت له حكومة الثورة العراقية راتباً تقاعدياً شخصياً قدره ١٥٠/ ديناراً في الشهر، حسب القوة الشرائية لعملة أيام زمان.

وفي عام ١٩٦٩/ صدر الجزء الثاني من ديوانه، وفي العام نفسه صدر له في بغداد ديوان "بريد العودة".

وفي عام ١٩٧١/ أصدرت له وزارة الإعلام ديوان "أيها الأرق".

وفي عام ١٩٧١/ كان رئيساً للوفد العراقي الذي مثل العراق في مؤتمر الأدباء العرب الثامن المنعقد في دمشق. وفي العام نفسه أصدرت له وزارة الإعلام ديوان "خلجات".

وفي عام ١٩٧٣/ رأس الوفد العراقي إلى مؤتمر الأدباء العرب الثامن الذي عقد في تونس.

وإذا ذكر الجواهري في الجرائد والمجلات والكتب، وقدم في المنتديات والمحافل، ذكر بالإعجاب والإكبار، وكثيراً ما لقب بالشاعر الكبير وشاعر العرب الأكبر.

أمضى سنواته الأخيرة في دمشق، ضيفاً على القائد الخالد حافظ الأسد. وفي العاصمة السورية صدرت أعماله الكاملة في مجلدات، ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية. كما أنجز بدمشق تحرير وطباعة مذكراته وسيرته الذاتية في مجلدين.

توفي الشاعر بدمشق في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٩٧/، ودفن تنفيذاً لوصيته في مقبرة السيدة زينب، رضي الله عنها.